

جمع السلف بين أداء التلاوة والاعتبار القرآني
وعلاقته بالمعنى والاستنباط
-قراءة تأصيلية تطبيقية-

THE COLLECTION OF PREDECESSORS BETWEEN THE
PERFORMANCE OF THE RECITATION AND THE
QURANIC CONSIDERATION AND ITS RELATIONSHIP TO
THE MEANING AND DERIVING
Applied Original Reading

Dr. Mohamd MEGHERBI الدكتور: محمد مغربي

Al-Jouf University, KSA جامعة الجوف، السعودية

mamegherbi@ju.edu.sa

Accepted: 2019/02/17

قبل للنشر:

Received:

2018/11/18

استلم:

ملخص:

يهدف البحث إلى التأصيل لمنهج الصحابة والتابعين في تلقيهم القرآن أداءً وتلاوةً مع المدارس والاستنباط، وللوقوف على هذا المنحى المنهجي في التعامل مع تلاوة القرآن وتفسيره، حاول الباحث استجلاء مبدأ الاعتبار القرآني وأثره في التفسير، إذ قد روت الآثار أقوال السلف في تدبر القرآن كما نُقلت في ضبط التلاوة والأداء في القراءة؛ بل الأقوال التفسيرية تشهد لصحة هذا المأخذ من حيث قوة الاستنباط والاستدلال، فأتحد الدليل [النص] والمُدلول [دلالة النص].

وتمثل النتائج المتقاة كخلاصة منهجية للقيمة العلمية للموضوع نفسه، مع التوصيات، أختصرها

في الآتي:

- مفاتيح الاعتبار القرآنيّ أصولٌ عرفها السلف الصالح فأثمرت تفاسير ذات أبعادٍ هدايةٍ.
 - إطلاقاتُ السلف في التفسير عرفٌ منهجيٌّ ينبغي درسه وفحصه للوقوف على القراءة الوظيفية للقرآن الكريم.
 - الحاجة ماسةٌ إلى تكوين نخبةٍ من المتصدّرين للإقراء يلزمون الأداء النبويّ في التلقي والتلقين، والمدارس، وتفعيل سنّة التدارس في مجالس القرآن؛ والله الموفق.
- الكلمات المفتاحية: تدبر؛ الاعتبار؛ القرآني؛ المعنى؛ التفسير.

Abstract:

The research aims at rooting out the method of companions and followers in receiving the Koran and performing the reading with the school and the development, and to stand on this approach in the method of dealing with the recitation of the Koran and interpretation. The researcher sought to clarify the principle of the Quranic consideration and its impact on interpretation. The effects of the Qur'an were narrated by predecessors in the management of the Qur'an as quoted in the control of recitation and reading performance; rather, the interpretive statements attest to the validity of this conclusion in terms of the power of reasoning. The guide is united [text] and meaning [text indication].

And the results are selected as a systematic summary of the scientific value of the same subject, with recommendations, summarized in the following:

•The keys to the Quranic consideration are the origins of the righteous predecessors, and it resulted in interpretations of the Hudayyad dimensions.

•Releases of advances in interpretation is a systematic method that should be studied and examined to determine the functional reading of the Holy Quran.

•The urgent need to create an elite group of readers to follow up the prophetic performance in receiving, teaching, teaching and activating the year of study in the councils of the Qur'an.

Keywords:



مقدمة:

الاعتبار القرآني معنى أصيل في التعامل مع النص الشرعي عموماً ومع القرآن المجيد خصوصاً، وذلك أن علماء السلف من الصحابة والتابعين، نقلت إلينا أقوالهم في تدبر القرآن كما نقلت في ضبط التلاوة والأداء في القراءة؛ فلم ينفك أحد المعنيين عن الآخر حال التعامل مع القرآن تلاوة، بل الأقوال التفسيرية تشهد لصحة هذا المأخذ من حيث قوة الاستنباط والاستدلال، فأتحد الدليل [النص] والمدلول [دلالة النص]. ولهذا الملحظ المنهجي اجتمعت كلمة الأئمة في تحيير التلاوة مع الإبقاء على استنطاق الآيات للتوصل إلى الاعتبار بما تروم إليه من معانٍ، وهو ما يُفيد محاسن التأويل وبدائع التفسير؛ ألم تروا أنه ما ورد النص بالتغني بالقرآن والقراءة على مكثٍ إلا للإرشاد إلى الاعتبار القرآني بحمل النظر على الأمثل من التظير والعوض في الاتفاق من النظم القرآني الآتي بالفهم والاستنباط والتدبير. وفي النشر الكبير لابن الجزري من ذلك التمثيل الكثير، قال -رحمه الله- «وإلى ذلك -يعني محاسن التجويد- أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله» من أحب أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد⁽¹⁾ «يعني عبد الله بن مسعود وكان رضي الله عنه قد أعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيبه كما أنزله الله تعالى وناهيك برجل أحب النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمع القرآن منه، ولما قرأ أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت⁽²⁾ في البخاري...» الخ؛ وفي سياق هذا المأخذ يُذكر خبر جبير بن مطعم أنه قرأ النبي صلى الله عليه وسلم في المغرب بالطور⁽³⁾ قال: «فلما

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ الشيباني: أحمد بن حنبل. تحقيق شعيب الأرئوط وغيره - مؤسسة الرسالة - ط1، 001م. رقم 35. (1/211).

(2) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه؛ البخاري: محمد بن إسماعيل. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. الطبعة: الأولى، 1422هـ. كتاب التفسير باب " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد" رقم 4586. (45/6)

(3) الجامع المسند الصحيح: البخاري: كتاب التفسير، سورة والطور، رقم 4854. (140/6).

بلغ قوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور-35] كاد قلبي أن يطير؛ ففي هذه الآثار الدالة على تحجير التلاوة انضمام إليها التدبر وما أتبعه من الاقتدار على التأويل الحسن والاستنباط الجيد، وليّان هذه التركيبة من الجمع بين الأداء والاعتبار عند الصحابة والتابعين، وتحصيلهم استنباط المعاني، سميت بحثي : ((جمع السلف بين أداء التلاوة والاعتبار القرآني وعلاقته بالمعنى والاستنباط))، ورسمت هذه المقدمة المنهجية محدداً فيها :

• مشكلة البحث:

لماذا انطلق الصحابة في تدبر القرآن من منطلق إيماني، جامع بين التلاوة وطلب المعنى للعمل؟ وما حقيقة الآثار الدالة على اعتبار الوقف والابتداء في الترتيل؟ وهل كان السلف الصالح محلّ تورّع في الإقلال من حجم التلاوة أم استكثروا ذلك؟ كيف لنا أن نجمع بين الترتيل واستثمار المعنى حال التدبر لتقويم السلوك؟ هل ثمة قواعد وأصول عملية تطبيقية لتزويد النفس بجرعات روحية وتجديدية تؤهل لشرح المعنى وتجليته وتتوسّم إلى استقامة مجتمعية وفردية؟ لماذا لا نحیی المدارس القرآنية التي عكف عليها الصحابة كالإخاذا ينهلون منه ما اقتدروا عليه؟

• أسباب اختيار البحث فترجع إلى الآتي:

- تجديد البحث في الدراسات القرآنية الآتية بالقيمة الفنية والعملية لمناهج التفسير.
- الاعتناء باستحداث التأطير التأصيلي للدراسات القرآنية الحديثة.
- رد الاعتبار لمنهج التفسير القرآني الأصيل، باستخراج القواعد العلمية وأبعادها العملية التي تحملها السلف الصالح رضوان الله عليهم، واصطلحوا عليها.
- منهج البحث: وتناولت فيه الاستقراء والتحليل والاستنباط.

- ففي المنهج الاستقرائي تتبعت آثار السلف الدالة على الترتيل والتدبر من خلال مدارستهم القرآن، واستقرأت بذلك القواعد التي نصوا عليها وعملوا بها.
- وفي المنهج التحليلي حاولت استجلاء المفاهيم ، وتحرير أصل الموضوع وهو تفصيل مهمات مشكلة البحث والجواب عن سؤالات الإشكالية. ومعالجة صعوبة الجمع بين التلاوة والتدبر.
- وفي المنهج الاستنباطي ، فرغتُ إلى إفهام القارئ استيعاب القواعد النظرية في العمق لاستخراج آلية استنباط مآلات التدبر عند الصحابة والتابعين .

• الدراسات السابقة ، منها:

- فن التدبر في القرآن الكريم، عصام صالح العويّد ، نشر مركز التدبر، ط 201، 3م، الرياض، المملكة العربية السعودية. والكتاب قيم ذو منحىً روحيّ وعلميٍّ أخاذ يهيب بالقارئ استثمار المعاني القرآنية لتجليتها في الواقع المأمول ، وسلوك المراحل العلمية لطلب فهم القرآن على وجه حسن سليم غير دخيل.

غير أنني افترقتُ عن معرض الباحث ودراسته بفارق استثمار هدي الصحابة والتابعين في كيفية الوقوف على المعنى القرآنيّ الأصيل من خلال تعاملهم مع التلاوة والأداء والتلقّي، وكيف استطاعوا الخلوص إلى أعمال المعاني القرآنية في واقع التعامل الحياتي وهم يباشرون الحياة اليومية من حيث تقويم سلوك النفس..

- العودة إلى القرآن، للباحث د/ مجدي الهلالي، لا يقلّ الكتاب أهميةً عن سابقه فقد تضمّن تحرير مشكلة الواقع الروحي للأمة الإسلامية، وأتى على ضرورة ردّها إلى معيها الصافي ليكون القرآن المصدر الأول لحياة الأمة علماً وروحاً وثقافةً. وقد نبّه الباحث في رسالته على المحطّات الإيمانية التي تتجدّد بتجدّد مدارس القرآن.

وأما بخصوص إضافتي إلى دراسة الباحث فإنني ركزتُ على القواعد العملية لمداينة القرآن ومن أين تُستخرجُ؟

- التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير، دراسة بلاغية تحليلية، للباحث عبد الله عبد الغني سرحان، نشر مركز تدبر ، 2009م، الرياض، المملكة العربية السعودية.

والكتاب ذو أسلوب علمي بلاغي، أخذ من فنّ البلاغة مأخذ التضمين لدراسة المصطلحات ذات الصلة بمصطلح التدبر وأتبع في ذلك خطته المرسومة في محاولة الوقوف على المعنى القرآني لهذه المصطلحات . وتبقى الفوارق لا زمة لاختلاف الإشكالية أو مشكلة البحث.

• حدود البحث والتزاماته:

- قمتُ بتوضيح الآيات القرآنية وضبطتُ شكلها واعتمدتُ في ذلك ما قرأ به حفص عن عاصم.

- خرّجتُ الأحاديث من مصادرها الأصلية أو الفرعية إذا وردت بطريق السند، وأما الآثار فعزوتها إلى مصادرها الناقلة بالأسانيد.

- إذا ورد الحديث في أحد الصحيحين اكتفيت به عن غيره من المصادر لصحته.

- التزمتُ في تخريج الحديث برقمه وباب ترجمته والصفحة.

- ضبطت شكل ما يمكن لبسه من الآثار والأحاديث.

- أفردتُ قائمة لمصادر البحث ومراجعته آخر الورقات.

• ولقد أتيتُ على وضع خطة لهذه الدراسة، تناولت فيها:

-التمهيد: وهو بيان مصطلحات العنوان وتحليل إشكاليته.

- المبحث الأول: الآثار الواردة في بيان علاقة التلاوة بالاعتبار والمعنى

- المبحث الثاني: مأخذ قواعد السلف التدبرية

- المبحث الثالث: نماذج تطبيقية دالة على الاعتبار والتفسير حال القراءة.

ثم الخاتمة، وتمثل النتائج المنتقا خلاصة منهجية للقيمة العلمية للموضوع نفسه، مع التوصيات، والله الموفق.

تمهيد: في بيان مصطلحات العنوان وتحليل إشكاليته.

1- المفهوم الجزئي: ويتناول دلالة الكلمات الآتية: الأداء، التلاوة، الاعتبار:

أ- الأداء : دلالاته في اللغة على القضاء وإيصال الشيء، ففي معجم ابن فارس: « الهمزة والدال والياء أصل واحد، وهو إيصال الشيء إلى الشيء أو وصوله إليه من تلقاء نفسه. قال أبو عبيد: تقول العرب للبني إذا وصل إلى حال الرؤوب، وذلك إذا خثر: قد أدى يؤدي أدياً⁽¹⁾؛ وقال الخليل: «وأدى فلان ما عليه أداء وتأدية، وفلان أدى للأمانة من فلان»⁽²⁾.

فالمصدر التأدية من الفعل المعتل أدى كجزأ تجزئة وهنأ تهنته على ما أفاده ابن مالك من التفرقة بين مصدر المعتل والسليم من باب فعل المفتوح ، وأما الاسم منه فهو الأداء الدال على الانتهاء بالشيء

(1) معجم مقاييس اللغة؛ ابن فارس القزويني، أحمد. تحقيق: عبد السلام محمد هارون . دار الفكر. 1979م. باب أدى (1/ 74).

(2) العين؛ الفراهيدي، الخليل بن أحمد . تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي . دار ومكتبة الهلال. د تا. باب اللفيف من الدال (8/ 98).

إلى الشيء وهو في دلالة القضاء والإيصال كما سبق ، قال الجوهري « وأدى دَيْتُهُ تأديةً، أي قَضَاهُ. والإِسْمُ الأداءُ. وهو أدى للأمانة منك، بمدّ الألف. وتأدى إليه الخبر، أي انتهى »⁽¹⁾

اصطلاحاً: تلاوة القرآن الكريم وتجويده وفق القواعد والأصول التجويدية المصطلح عليها بين القراء، محاكاة وأتباعاً لقراءة رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم⁽²⁾. وقيل « تأديةُ القراءِ القراءةَ إلينا بالنقل عمّن قبلهم »⁽³⁾.

ب- التلاوة: في اللغة مصدرُ الفعل تلا من تَلَوَ، فيه إبدالٌ ومضارعه يتلَوُ، وفي كتاب العين «تلا فلانُ القرآنَ يتلُو تِلَاوَةً، وتَلَا الشيءَ: تبعَهُ تِلْواً»⁽⁴⁾، وفي الصحاح: وتَلَوْتُ الرجلَ أثْلُوهُ تِلْواً، إذا تبعْتُهُ. يقال: مازلت أثْلُوهُ حتى أثْلَيْتُهُ، أي حتى تقدّمته وصار خلفي⁽⁵⁾. ومن هذا المعنى، ورد تفسير الآية « والقمر إذا تلاها » أي تبعها، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما⁽⁶⁾.

واصطلاحاً: «قراءة القرآن الكريم وتجويده وترتيبه بتفكيرٍ وتدبرٍ، لاتباع أوامره والاهتداء بهديه، والابتعاد عن مناهيه ومحظوراته . قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ

(1) تاج اللغة وصحاح العربية؛ الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين - بيروت. ط 4، 1407 هـ - 1987 م. مادة "أدا" (6/ 2266).

(2) معجم علوم القرآن، الجرمي: إبراهيم محمد. دار القلم، دمشق؛ ط 1؛ 1422 هـ - 2001 م. (ص: 43)، ثم واصل قائلاً: " وأداء القرآن يشمل كلاً من: 1 - التلاوة تعبدًا وتفكيرًا. 2 - العرض على الأساتذة. 3 - تلقين الأستاذ لطلابه. "

(3) مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، الدوسري؛ إبراهيم بن سعيد بن حمد. دار الحضارة للنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية. ط 1 - 2008 م. (ص: 18) ..

(4) العين؛ الفراهيدي: (8/ 134).

(5) تاج اللغة وصحاح العربية؛ الجوهري: (6/ 2289).

(6) جامع البيان، الطبري: (24/ 452)

بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [البقرة: 121] ⁽¹⁾، وقال أبو البقاء «هي قراءة القرآن متتابعة» ⁽²⁾.

فعلى هذا التصور من مفهوم التلاوة في كونه قراءة القرآن بتتابع تجويد حروفه مع حسن أدائه، يظهر اجتماع التلاوة والأداء في القراءة، لكونها سنة متبعة في كيفية النطق بالحروف، ولذلك تجد في نقول الأئمة النص عن أهل الأداء والعزو إليهم في تحقيق مراتب القراءة، وتوجيه النطق بالكلمات القرآنية خرجاً وصفةً ووقفاً.

ج- الاعتبار : في اللغة مأخوذ من اعتبر على وزن افتعل فهو من المزيد، وأصله عبر الثلاثي المفتوح العين، يعبر عبوراً ومجازة ⁽³⁾. والاسم العبرة والاعتبار «واعبر منه: تعجب، وفي حديث أبي ذر: «فَمَا كَأَنْتَ صُحْفٌ مُوسَى؟ قَالَ: كَأَنْتَ عَبْرًا كُلُّهَا» وَهِيَ كَالْمَوْعِظَةِ مِمَّا يَتَّعِظُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَعْتَبِرُ: لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ» ⁽⁴⁾.

وفي الاصطلاح متعدّد الإطلاق بحسب الفنون، فعند المحدثين هو «التحرّي والجتهاد في حال الإسناد، ليطلع على المتابعات والشواهد» ⁽⁵⁾، وعند الأصوليين هو «النظر في الحكم الثابت أنه لأي معنى ثبت، وإلحاق نظيره به..» ⁽¹⁾. وقيل: «هو التدبر وقياس ما غاب على ما ظهر» ⁽²⁾.

(1) معجم علوم القرآن، الجرمي: (ص: 104).

(2) الكليات : الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري. مؤسسة الرسالة - بيروت. د. تا. (ص: 308).

(3) وَذَكَرَ النَّحَّاسُ فِي تَوْجِيهِ الْآيَةِ- [فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ] - أَنَّ (الاعتبار يكون بالقلب لأنه اتعاظ واستدلال بما مرّ)

ينظر: إعراب القرآن ؛ النَّحَّاسُ : أبو جعفر، أحمد بن محمد بن محمد بن إسماعيل. تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم؛ دار الكتب

العلمية، بيروت. ط. 1421، 1 هـ. (4/ 257).

(4) تاج العروس من جواهر القاموس؛ الزبيدي: أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني. تحقيق: مجموعة من المحققين. دار الهداية. د. تا. (12/

504) ؛ وينظر: لسان العرب: ابن منظور: (4/ 531).

(5) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: أ. د محمد إبراهيم عبادة. مكتبة الآداب - القاهرة:

مصر. ط. 1- 2004 م : (ص 44).

هذا، وإنَّ تتبعَ الأصوليين لمواردِ الألفاظ والكلمات القرآنية قصدَ استنباطِ الأحكام التَّكليفية من نصوصها، يُظهرُ اعتمادَ مفهومِ الاعتبارِ بدَوْرانِهِ حَوْلَ معاني النظر والقياس وردِّ الشيء إلى نظيره. وكلُّها تؤوّل إلى معنى واحد هو التدبر والعبرة؛ واستعمالُ الأصوليين لهذا المصطلح بكثرة يدلُّ على اهتمام مأخذه، وجريانه على المُقتضى من الدَّلالاتِ في علمِ الأصولِ عُموماً وقواعدِ التفسير خصوصاً، ومن جملة مَنْ اشتهر بتوظيفه في المصنّفات والمجالس، الشيخُ سعدُ الدِّين التفتزاني^[793هـ]، والإمامُ الشَّاطِبيُّ كقوله في مسألة المندوب «الْمَنْدُوبُ إِذَا عَتَبَتْهُ اعْتِبَارًا أَعَمٌّ مِنَ الْإِعْتِبَارِ الْمُتَقَدِّمِ؛ وَجَدْتُهُ خَادِمًا لِلْوَاجِبِ لِأَنَّهُ إِمَّا مُقَدِّمٌ لَهُ، أَوْ تَكْمِيلٌ لَهُ، أَوْ تَذْكَارٌ لَهُ، كَانَ مِنْ جِنْسِ الْوَاجِبِ أَوْ لَا. فَالَّذِي مِنْ جِنْسِهِ؛ كَنُؤَافِلِ الصَّلَوَاتِ مَعَ فَرَائِضِهَا وَنُؤَافِلِ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مَعَ فَرَائِضِهَا»⁽⁴⁾.

وقد تواطأ كثيرٌ من الأصوليين على تقسيمِ الاعتبارِ إلى عقليٍّ وشرعيٍّ، بحسبِ موارده وأوصافه كالقياس، بل هو منه في أكثر أحواله، وعند الشَّاطِبيِّ تقسيمٌ تجديديٌّ حالة الدرس التفسيري الإشاري للقرآن الكريم، من حيث تقسيمُ ألفاظه إلى ظهرٍ وبطنٍ، فعاملُ الناظر في القرآن عند استنباطِ المعاني الدقيقة - أو التأويلِ إلى فهمٍ خفيةٍ أو إشاراتٍ باطنةٍ - معاملةُ الاعتبارِ الوجوديِّ أو الشرعيِّ، وأطلق على هذا الأخير وصفه بالقرآنيِّ، أي الإشهادُ على صلوحية الوجوديِّ أو فساده بدلالة قرآنية؛ قال

(1) الجرجاني: التعريفات: (ص 30).

(2) الكفوي، أبو البقاء: الكليات ص 147. وينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي. محمد بن علي. تحقيق: د. علي دحروج.

مكتبة لبنان ناشرون بيروت. ط 1 - 1996م. (1/ 227).

(3) ينظر: شرح التلويع التوضيح: التفتزاني، سعد الدين مسعود بن عمر. (2/ 108).

(4) الموافقات: الشَّاطِبي. أبو إسحاق، إبراهيم بن يعقوب، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان. دار ابن عفان. ط 1 - 1997م.

(1/ 239).

الشَّاطِئُ» إِنَّ تِلْكَ الْأَنْظَارَ الْبَاطِنَةَ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ إِذَا لَمْ يَظْهَرْ جَرَيَانُهَا عَلَى مُقْتَضَى الشُّرُوطِ الْمُتَقَدِّمَةِ؛ فَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى الْإِعْتِبَارِ غَيْرِ الْقُرْآنِيِّ، وَهُوَ الْوُجُودِيُّ، وَيَصِحُّ تَنْزِيلُهُ عَلَى مَعَانِي الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ وَجُودِيٌّ أَيْضًا؛ فَهُوَ مُشْتَرِكٌ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ غَيْرِ خَاصٍّ؛ فَلَا يُطَالَبُ فِيهِ الْمُعْتَبَرُ بِشَاهِدٍ مُوَافِقٍ إِلَّا مَا يُطَالِبُهُ [بِهِ] الْمُرَبِّي، وَهُوَ أَمْرٌ خَاصٌّ.....»⁽¹⁾.

والمُراد، تصحيحُ ما شهد له القرآنُ بالاعتناظ والاهتداء، تقويماً لما عسى أن يكون مضافاً إلى النظائر في تأويل القرآن أخذاً من تدبُّر تلاوته، وغوصاً في تجويد قراءته، واستنباطاً في موارد التغني بخطابه.

وانطلاقاً من تضافر استعمال الأصوليين لمصطلح الاعتبار، حاولتُ التأصيل للاعتبار القرآني في مفهوم السلف، بإقامة الاستقراء المنهجيَّ أخذاً من آثارهم وعُرفهم في معاملة القرآن الكريم تلقياً واستنباطاً وتأويلاً، وبيان حكم ذلك في صنعة التفسير، وبعده الوظيفيُّ الهدائيُّ.

2- المفهوم الكلِّيُّ التركيبيُّ: ويتناول علاقة الأداء بالاعتبار القرآنيّ وتحرير إشكالية الجمع بينهما:

إنَّ علاقة الأداء في التلاوة بالاعتبار هي علاقة التلقِّي لحروف القرآن بحضور القلب من أثر الإعجاز النفسي للقرآن الكريم، إذ الآثار الواردة تُثبِتُ اتِّصال هذين الوصفين [التلقِّي وحضور القلب] اتصالاً وثيقاً مما أُنْثِرَ في تفسير النصِّ القرآنيِّ وهذا الذي سَمَّيْنَاهُ بِالْإِعْتِبَارِ النَّاتِجِ عَنْ إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالنَّظَرِ فِي التَّرْتِيلِ، وَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ... الْآيَةِ، وَقَوْلُهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ

(1) ينظر: الموافقات، الشاطبي: (4/ 242 - 243)

وَعَذُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ الآية. فأىُّ علاقةٍ بين التلاوة وبين الحرِّ إلى الأرض -سجوداً- أو زيادة الخشوع، لولا النظر والتدبرُّ وهو الاعتبار القرآنيُّ، أو الإثغاءُ.

وتتفاوتُ الأنظارُ في المجاري التفسيرية بحسب تعاطي التلاوة والتعامل مع القرآن تلقياً أو تلقيناً، ويظهرُ هذا المنحى في وفرة الأقوال التفسيرية المتعددة لدى علماء السلف في الآية الواحدة والآيتين، مع التنبيه إلى إمكان التشابه في مآلات الأقوال من حيثُ الجملة، لاجتماع كلمتهم على الرِّشْفِ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْقُرْآنِيَّةِ وَاسْتِصْحَابِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ سُلُوكاً وَوُضُفَةً، مَعَ عِلْمِهِمُ التَّأَمُّ بِلِسَانِ الْخُطَابِ وَمَحَاكَاةِهِمْ أَسَالِيْبَ الْقُرْآنِ، وفي القرآن إشارةٌ إلى تحكيم أهل العلم الراسخين بمقتضى علمهم بمجاري الاعتبار القرآنيِّ والمقاصد الهدائية، قال تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء، 83] فأثنى على أفضليتهم بحسن الاستنباط، بل دلت الآية على أنَّ الاستنباط فضيلةٌ لأهل العلم، به تمتازُ قرائحهم في الكشف عن معاني القرآن واستجلاء مقاصده. والاهتداء بهديه. وما ذلك إلاَّ لحسن تعاملهم مع القرآن اعتباراً ونظراً وأثراً دون الأداء وحده أو استقلال تجويد القراءة عن الاتِّعَاضِ بِالْقُرْآنِ.

عن أبي وائل قال: خَطَبَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْمَوْسِمِ، فَافْتَتَحَ سُورَةَ الثُّورِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيُفَسِّرُ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ مَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ كَلَامَ رَجُلٍ مِثْلَ هَذَا، لَوْ سَمِعْتُهُ فَارِسُ، وَالرُّومُ، وَالتُّرْكُ لَا سَلَمَتْ⁽¹⁾.

ومن هذا القبيل القراءةُ بالنظائر من آيات القرآن، لإفادتها دَلَالَاتٍ سِيَاقٍ مُنْتَظِمٍ، فعن أبي وائل، أنه: سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ اللَّهِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: 15] أَوْ يَاسِنٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُلُّ الْقُرْآنِ قَدْ قَرَأْتُ غَيْرَ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: إِنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَهُ يَنْثَرُونَهُ نَثْرَ الدَّقْلِ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ إِنِّي لَأَعْرِفُ السُّورَ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بَيْنَهُنَّ قَالَ:

(1) سير أعلام النبلاء الذهبي، شمس الدين. تحقيق: شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة. ط3- 1985 م. (3/ 351).

فَأَمَرْنَا عَلْقَمَةَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بَيْنَ كُلِّ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ»⁽¹⁾

فهنا حمل للنفس على التلاوة مع التدبر والاعتبار دون الأداء وحده. وعلى هذا اجتمعت كلمة الصحابة والتابعين، ولعل الآتي من عناصر البحث يقرب الأمر ويوضحه أحسن إيضاحاً وتوضيحاً.

المبحث الأول: الآثار الواردة في بيان علاقة التلاوة بالاعتبار والمعنى:

1- الآثار القولية:

- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»⁽²⁾.

- عن ابن مسعود قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»⁽³⁾.

- جاء رجل إلى ابن مسعود، فقال: إِنِّي قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذَا كَهَذَا الشُّعْرُ؟⁽⁴⁾

- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» قَالَ أَبِي: أَلَلَّهُ سَمَانِي لَكَ؟ قَالَ: «اللَّهُ سَمَّاكَ لِي» فَجَعَلَ أَبِي يَبْكِي، قَالَ قَتَادَةُ: فَأُنِيتُ

(1) الجامع الكبير : الترمذي، محمد بن عيسى: تحقيق: بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي - بيروت . 1998 م كتاب الصلاة، باب ذكر ما ورد من قراءة سورتين في ركعة من حديث ابن مسعود، رقم 602. (740/1).

(2) المسند، الشيباني: أحمد بن حنبل. تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره- مؤسسة الرسالة- ط1، 2001م. رقم 9274.

(3) جامع البيان، الطبري: (80/1)

(4) المسند، الشيباني: رقم 4154 (219/7).

أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: 1].⁽¹⁾ وما تلقى أبيُّ الأداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لمنقبة عظيمة فيه، مأخذها الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم قراءةً وتحبيراً وعملاً، وأجود دليل على هذا، اختباره صلى الله عليه وسلم له في علم القرآن إذ قال له «يا أبا المنذر أي آية في كتاب الله أعظم؟ فقال أبيُّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فضرب النبي صلى الله عليه وسلم صدره وهنأه قائلاً «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر»⁽²⁾. فأوتي أبيُّ العلم بالقرآن اعتباراً وتأويلاً ولم يتوقف عند حدود تلاوة الحروف؛ وصَدَّقَ قولُ أبي عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعاً»⁽³⁾، بل يُقدِّم في هذا الاعتبار قول ابن أمّ عبدٍ -رضي الله عنه- من رواية أبي وائل شقيق بن سلمة:

« كان الرجل مِنّا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ، والعمل بهنّ»⁽⁴⁾.

2- الآثار الفعلية:

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: اسْتَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَتِي مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «يَا أَبَا مُوسَى اسْتَمَعْتُ قِرَاءَتَكَ اللَّيْلَةَ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، قُلْتُ: يَا

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح: (6/ 175).

(2) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل الضابط: النيسابوري، مسلم بن الحجاج. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي - بيروت. دتا. 810، (556/).

(3) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان (1/ 80).

(4) الطبري، مرجع سابق: 80/1.

رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَكَ لَخَبَرْتُكَ تَحِيْرًا⁽¹⁾. وهذا التعتي بالقرآن محمولٌ على اجتماع الصوت الحسن مع التدبر والاتعاظ أو الاعتبار لا التلاوة وحدها، وشاهد هذا التقرير النظائر من الآثار العملية العديدة أثبتت الإعجاز النفسي والانجذاب إلى حسن الإصغاء والتأثر بالقرآن المتعتي به، أو لم تر كيف انقادت جماعة من قريش لأداء النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتغنى بالقرآن عند الكعبة، وهذا من أقدم الآثار الدال على السياق الأدائي للقراءة، وقد ذكر أولوا العلم بالسيرة قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه على الوليد بن المغيرة فأثنى ثناءً حسناً وأعجب بالبيان الإلهي، وسمع جبير بن مطعم قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يومئذ مشرك⁽²⁾ - يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ « قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ »⁽³⁾ وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبته الله في كتابه إذ جماعة من الجن فأسلمت وقالت خيراً في مقروء رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبته الله في كتابه إذ قال سبحانه ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: 1-2].

وما تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم لسماع ابن أم عبد إلا خطأً من هذا « قال إني أحب أن أسمع من غيري فقرأ عليه صدر سورة النساء حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

(1) المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع: ابن حبان الرازي، أبو حاتم، محمد: دَكُرَ قَوْلُ أَبِي مُوسَى لِلْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ لَوْ عَلِمَ مَكَانَهُ لَخَبَرْتُكَ، رقم: 7197 (16/ 170).

(2) قال شيخ الإسلام ابن حجر: "...وَزَادَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرٍ وَهُوَ يَوْمئِذٍ مُشْرِكٌ وَلِلْمُصَنَّفِ فِي الْمَغَازِي مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرٍ أَيْضًا فِي آخِرِهِ قَالَ وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي وَلِلطَّبْرَانِيِّ مِنْ رَوَايَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الرَّهْزِيِّ نَحْوَهُ وَزَادَ (فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ الْكَرْبُ) وَلِسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ عَنْ هُشَيْمٍ عَنِ الرَّهْزِيِّ (فَكَأَنَّما صَدَعَ قَلْبِي حِينَ سَمِعْتُ الْقُرْآنَ)... الخ.

ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري. العسقلاني، أحمد بن حجر: تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار المعرفة - بيروت، رقم 1379. (2/ 248).

(3) البخاري، الجامع الصحيح: كتاب التفسير، سورة والطور، رقم 4854. (6/ 140).

بشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿النساء: 41﴾ قال لي حسبك. فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان⁽¹⁾ وقد أثنى على ثغنيهِ وحُسنِ أدائه فقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا أَنْزَلَ فَلْيَقْرَأْ قِرَاءَةَ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ⁽²⁾».

والمقصود من سياقات الآثار القولية والفعلية كليهما إثبات اتحاد المقروء وحضور القلب ليتنفع به اتعاضاً واعتباراً مما يُثمر محاسن التأويل والاستنباط ويؤتي في النفس خضوعاً وظيفياً لهدي القرآن نظرياً وتطبيقاً ومن هذا القبيل تأويل قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، فالانتفاع حاصل بالاتباع حالاً وهدياً، فالأول هو حضور القلب والآخر هو الاعتبار القرآني.

المبحث الثاني: مأخذ قواعد السلف التدبرية:

يأتي هذا المبحث المنهجي اضطراراً لتحرير تطبيقات الشواهد التأصيلية السابقة التي علقت بهدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته المقتدين رضي الله عنهم أجمعين، ولبيان هذه القواعد المنهجية نُلفتُ النظر إلى أنّ مأخذها هو ذات عمل النبي صلى الله عليه وسلم، بحكم إيجاب الاقتداء والتعبد بشرعته صلى الله عليه وسلم، وقد توخيتُ في ذلك إجراء التتبع والاستقراء لتثبيت القاعدة وإحكامها، وما ترك من الأمثال والأشباه فيقاسُ على نظيره من الشواهد بحكم التقارب والائتلاف.

القاعدة الأولى: - قيام الليل وطول القنوت

وهذه القاعدة المنهجية هي عملية محضة بنص حكمها التكليفي، بيد أنها أصل جامع لوفرة السكينة والطمأنينة الآتيتين بالتدبر والتفرغ الوافي لحضور القلب وشاهد هذه القاعدة ما ورد من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح: كتاب تفسير القرآن: رقم 4583. 45/6.

(2) الشيباني: مرجع سابق: رقم 35. 211/1.

بالبقرة فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثم ركع⁽¹⁾. وكذلك كان غيره من الصحابة والتابعين على نفس الهدى من طول القنوتِ تذلاً وحباً لله وتذوقاً لخطابه المجيد.

- القاعدة الثانية: تكرار القراءة للموضع المؤثر، والتجاوب مع القراءة⁽²⁾:

قال ابن القيم..... فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمه بغير تدبر ولا تفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح⁽³⁾، وصديقاً قال، وما أشد ما كان السلفُ كارهين لحال من يقرأ القرآن هذلاً غير معتبرٍ بأسلوب القرآن نداءً أو ترغيباً أو ترهيباً، وأما شاهد القاعدة الصريح فنحو خبر أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها⁽⁴⁾ ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنْهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]. وأما التجاوب مع الآي فكَتَسْبِيحِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَأْوِيلاً لِسُورَةِ النَّصْرِ⁽⁵⁾، وكذا مواضع سجود القرآن⁽¹⁾. فضلاً عما ورد من المشهور في سجود المسلمين والمشرّكين قصةَ قراءته صلى الله عليه وسلم آخر سورة النجم.

(1) فضائل القرآن: الفريابي، أبو بكر جعفر بن محمد. تحقيق: يوسف عثمان فضل الله جبريل. مكتبة الرشد، الرياض. ط1 - 1989 م. رقم 118. (1/ 210).

(2) يُنظر: الهاللي، مجدي: العودة إلى القرآن: ص 99.

(3) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: دار الكتب العلمية - بيروت. دتا. (1/ 187).

(4). يُنظر: الألوسي، محمد بن عبد الله: روح المعاني: 67/4.

(5) عن عائشة رضي الله عنها قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكَيِّزُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأوّل القرآن. كتاب باب التسييح والدعاء في السجود، رقم 817، (1/ 163).

القاعدة الثالثة: التوجيه لتأويل الآية حال التلقي أو الاستماع:

استفدنا هذه القاعدة من جريان العمل عن السلف الصالح وكبار القراء في تجاوبهم مع الأداء القرآني عرضاً أو سماعاً أو استماعاً، خاصة من عُرفَ منهم بكثرة الإقراء -أو القراءة- وهو بذلك يُحيي سُنَّةً مُتَّبَعَةً، ومن مظانَّ هذه القاهدة الشواهد الآتية:

- سمع عبد الله بن مسعود رجلاً قرأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]. قال: «إي وعزَّتْكَ، فجعلته سميعاً بصيراً، وحياً وميتاً»⁽²⁾.
- عن صالح بن مسمار، قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية «يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمَ»⁽⁴⁾ فقال: جهله⁽³⁾.
- عن ابن عمر أنه قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1]، فقال: سبحان ربي الأعلى⁽⁴⁾.

(1) يعني المواضع القرآنية التي ورد وثبت فيها سُجُود النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. من ذلك قَوْلُ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ (أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ "وَالنَّجْم" سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه.... البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، سورة والنجم برقم 4863 (142/6).

(2) جمال القراء؛ السخاوي؛ علي بن أحمد. تحقيق: عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي؛ مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت. ط 1، 1419 هـ - 1999 م. (376/1)

(3) جمال القراء؛ السخاوي: (376/1). ويُنظر للتوسُّع: فضائل القرآن: ابن سلام، أبو عبيد القاسم. تحقيق: مروان العطية ومُحَسِّن خرابة ووفاء تقي الدِّين - دار ابن كثير، دمشق-بيروت-ط2، 1999م:- باب ما يُستحبُّ لقارئ القرآن من الجواب عن الآية والشهادة لها ص 149.

(4) جمال القراء؛ السخاوي: (324/1).

- قال نافع: «....وكان ابن عمر إذا قرأ لم يتكلم حتى يفرغ مما يريد أن يقرأ فدخلت يوما، فقال: أمسك عليّ سورة البقرة، فأمسكتها عليه فلمّا أتى على مكان منها قال: أتدري فيم أنزلت؟ قلت: لا، قال: في كذا وكذا ثم مضى في قراءته»⁽¹⁾.

القاعدة الرابعة: حُسْنُ الوقف والابتداء:

وهذه قاعدة "جليلة القدر والمنزلة، عكف على تفصيلها وتحريرها غير واحد من الأئمة، بل اجتمعت كلمة أهل الأداء على لزوم معرفة هذا الركن الركين في التلاوة، وحملوا المعنى على مقتضاه، بل ورد عن القراء العشرة وغيرهم من الأفاضل أولي الشأن في هذا اختيارات دقيقة لمواضع من القرآن، يفهم منها الالتزام التام بهذا الأساس، والسنة قاضية على الكل، فقد ورد ما يثبت وقوفه صلى الله عليه وسلم عند رؤوس الآي كما هو مشهور"⁽²⁾.

ومن شواهد هذه القاعدة قول ابن عمر -رضي الله عنه- «قَدْ عَشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنْ أَحَدُنَا لِيُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ وَنَزَلَ السُّورَةُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَأَمْرَهَا وَزَجْرَهَا وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا»⁽³⁾. وقال ابن الجزري في النشر الكبير: «وَفِي كَلَامِ ابْنِ عُمَرَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَهُ إِجْمَاعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، وَصَحَّ، بَلْ تَوَاتَرَ عِنْدُنَا تَعَلُّمُهُ وَالِاعْتِنَاءُ بِهِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ كَأَبِي جَعْفَرٍ يَزِيدَ بْنِ الْقَعْقَاعِ إِمَامِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْيَانِ التَّابِعِينَ وَصَاحِبِهِ الْإِمَامِ نَافِعِ بْنِ أَبِي نُعَيْمٍ وَأَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ وَيَعْقُوبَ الْحَضْرَمِيِّ وَعَاصِمَ بْنِ أَبِي

(1) المرجع السابق: (1/ 330).

(2) يُنظر: المكتفى في الوقف والابتداء؛ الداني: أبو عمرو عيسى بن عثمان تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان. دار عمار ط 1 - 2001 م: (ص12). وقد نقل الحافظ أبو عمرو حديث أم سلمة- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف ثم يقول: الحمد لله رب العالمين ثم يقف ثم يقول: الرحمن الرحيم [ثم يقف ثم يقول] ملك يوم الدين".

(3) المكتفى في الوقف والابتداء؛ الداني: ص4.

النُّجُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُئِمَّةِ، وَكَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٌ، وَنُصِّصُهُمْ عَلَيْهِ مَشْهُورَةٌ فِي الْكُتُبِ... الخ⁽¹⁾. وَمَا يُخْتَمُ بِهِ مِنْ أُمُثْلَتِهَا غَيْرُ مَا سَلَفَ قَوْلُ أَبِي نَهْيِكَ الْأَسَدِيِّ فِي الْآيَةِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ...﴾ [آل عمران، 7]، «إِنكُمْ تَصْلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنِهَا مَقْطُوعَةٌ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾»، فانتَهَى عِلْمُهُمْ إِلَى قَوْلِهِمُ الَّذِي قَالُوا⁽²⁾؛ وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْإِخْتِيَارَ الْمَأْثُورُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي جَامِعِ الْبَيَانِ⁽³⁾، قِرَاءَتُهُ: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ آمَنَّا بِهِ»، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ وَهِيَ مَذْهَبُ الطَّبْرِيِّ، وَعَلَيْهِ جَمْعُ مِنَ الْقُرَّاءِ.

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية دالة على الاعتبار والتفسير حال القراءة:

هذا المبحث هو خلاصة الدراسة التحليلية لموضوعنا، فما من دراسةٍ إِلَّا أَرَيْتُ بِنَمَازِجِهَا التَّطْبِيقِيَّةِ كَأَثَرٍ فِعْلِيٍّ لَهَا، وَهَذَا غَرَضُ مَبْحَثِنَا الْحَالِي، إِذْ تَوَخَّيْ فِيهِ تَطْبِيقَاتِ السَّلَفِ لِلدَّرْسِ التَّفْسِيرِيِّ مِنْ خِلَالِ الْقِرَاءَةِ الْإِعْتِبَارِيَّةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، عِلْمًا أَنَّا مَا قَدِمْنَا عَلَى هَذَا النَّمَطِ مِنَ النَّمَاذِجِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِقْرَاءٍ طَوِيلٍ وَتَصْفُحٍ لَكُتُبِ الْقَوْمِ مِنْ مَتَخَصَّصِي الْمَفْسَّرِينَ وَمَهْرَةِ الْأَصُولِيِّينَ الَّذِينَ عَكَّفُوا عَلَى تَفْهَمِ عُرْفِ السَّلَفِ فِي طَرِيقَةِ تَعَامُلِهِمْ مَعَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَلْقِيًا وَفَقْهًا.

وهاك أخِي، طَائِفَةٌ مِمَّا اسْتَفَدْنَاهُ مِنْ تَأْوِيلِ السَّلَفِ الْجَارِي عَلَى الْجَدَّةِ وَالْإِعْتِبَارِ، فَإِذَا فَرَعْنَا مِنْ عَرْضِهَا عَرَّجْنَا عَلَى نُكْتِهَا الْإِعْتِبَارِيَّةِ:

(1) النشر في القراءات العشر؛ ابن الجزري: (1/ 225). وتتمه كلامه: "وَمِنْ تَمَّ اشْتَرَطَ كَثِيرٌ مِنْ أَيْمَةِ الْخَلْفِ عَلَى الْمُجِيزِ أَنْ لَا يُجِيزَ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ الْوُقُوفَ وَالْإِتِّدَاءَ، وَكَانَ أَئِمَّتُنَا يُوقِفُونَنَا عِنْدَ كُلِّ حَرْفٍ وَيُشِيرُونَ إِلَيْنَا فِيهِ بِالْأَصَابِعِ سُنَّةً أَخَذُوهَا كَذَلِكَ عَنْ شُيُوحِهِمُ الْأَوَّلِينَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ -، وَصَحَّ عِنْدَنَا عَنِ الشَّعْبِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَيْمَةِ التَّابِعِينَ عِلْمًا وَفَقْهًا وَمُفْتَدًى أَنَّهُ قَالَ: إِذَا قَرَأْتَ (كُلُّ مَنْ عَلَيَهَا فَإِنْ) فَلَا تَسْكُتْ حَتَّى تَقْرَأَ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" اهـ.

(2) جامع البيان؛ الطبري، (6/ 202).

(3) المرجع السابق: (6/ 202).

1- قَالَ نَافِعٌ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا صَلَّى الْعِدَّةَ يَعْنِي مِنْ يَوْمِ الْعِيدِ قَالَ: يَا نَافِعُ أَخْرَجْتَ الصَّدَقَةَ فَإِنْ قُلْتُ نَعَمْ مَضَى إِلَى الْمُصَلَّى، وَإِنْ قُلْتُ لَا قَالَ فَالآنَ فَأَخْرِجْ فَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي هَذَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) ﴿(الأعلى)⁽¹⁾.

2- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (1) فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ.⁽²⁾

3- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَدْخُلُنِي مَعَ أَشْيَاحٍ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رَأَيْتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مَنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر-1] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا جَاءَ نَصْرٌ وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَذَرِي، وَلَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكْذَلِكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَأَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ بِهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ «فَتَحُ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجْلِكَ.» ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر-3]، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ.⁽³⁾

4- نقل القاسمي عن الرازي نسبة تأويل الجلود في تفسير آية: «وَقَالُوا لِيَجْلُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» إلى ابن عباس قوله:

(1) معالم التنزيل: البغوي؛ الحسين بن مسعود: تحقيق: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي - بيروت. ط 1- 1420 هـ. (5/242).

(2) المرجع السابق: (5/221).

(3) المرجع السابق: (5/326).

«أريد بشهادة الجلود شهادة الفروج»⁽¹⁾، واستحسنه القاسمي ورجّحه بناءً على أن «مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى»⁽²⁾ أي مقارنة مرتبة الخطيئة الآتية من جارحة اليد مثلاً هي أقل من جارحة الفخذ، لشناعة الزنى وكونه أقبح. والله تعالى أعلم.

5- عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، سَمِعَ أَبَا عُبَيْدَةَ، يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «إِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ مِنْهُ جَدٌّ وَلَا هَزْلٌ، اقْرَءُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] قَالَ: هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ هَكَذَا فَهَلْ تَجِدُونَ لِأَحَدٍ رُخْصَةً فِي الْكَذِبِ؟⁽³⁾

• توجيه الأقوال التفسيرية:

هذه عينة مما ذكر في مصنفات المفسرين، تتجلى أهميتها في عرض النكت التفسيرية وملحها بأسلوب من تأويل القرآن إلى معانٍ لطيفة وإشاراتٍ دقيقة لا يقف عليها إلا من خبرَ عُرف السلف في التفسير وعلمَ منهجهم الشامل، وإثمه من مناسبة القول بأن تفسير السلف المبني على الاعتبار القرآني هو أحوج إلى دراسة جامعة باستقراء الآثار وتحليلها تحليلاً يليق بالعناصر المنهجية في إطلاقات الصحابة لدى تفسير النصوص.

وعليه، فإننا نرى أن سرد النماذج التطبيقية السابقة ثمّلُ إسهاماً تأصيلياً وتطبيقياً في معرفة مراتب التفسير عند السلف وكذا القدرات الفنية لاستنباط المعاني والأحكام لديهم.

فأما النموذج الأول والثاني فمتعلّقه أسباب النزول، ولا يلزم من الخبر المروي عن ابن عمر وابن عباس إرادتهما السبب الصريح، لما علمنا من أن السورتين مكّيتان، أي سورتي الأعلى والمطّفين بل ثمة إجماع حاصل على مكية سورة المطّفين، فأی معنى إذن في الحكم على السورة بنزولها بالمدينة

(1) محاسن التأويل: القاسمي، محمد جمال الدين: تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ. (8 / 331).

(2) المرجع السابق: (8 / 333).

(3) التفسير المسند: ابن أبي حاتم: (6 / 1906).

من قِيلَ ابن عباسٍ وكذلك الشأنُ في قول ابن عُمَرَ بحمل الآية على أداء صدقة الفطر والآية مكية، ولم يكن ثمة بالمدينة عيدٌ.

والجوابُ عن هذين السؤالين، متوقفٌ على فهم مُنطلق التفسير لدى الصَّحْب الكرام رضي الله عنهم، فهنا أُريدَ بسبب النزول تفسير الآية وحملها على الواقعة، وجعلُ القصّة مناسبةً للآية، بحُكم التناول العام لكل ما هو من نظيره في المسألة، فقول ابن عُمَرَ من محمولات الآية العام لما داخل اسم الصلاة والزكاة من الشُّمولِ فعبرَ عن أحد أفرادها. وكذلك تأويلُ ابن عباسٍ لآية المُطَفِّين هو تنبيه على أفراد الشُّمولِ لمناسبة تصحيح المعاملاتِ بجنس الآية أخذاً بعموم التُّصوص الدالّة على إرادة الإصلاح وتهذيب النفوس. قال القاسميُّ «وأما ما رواه النسائي وابن ماجة - كما في ابن كثير - عن ابن عباس، لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله وَيْلٌ لِلْمُطَفِّينَ فأحسنوا الكيل - فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإنزال، في إطلاق السلف، لا يكون مقصوراً على أن كذا سبب النزول. بل إن كذا مما نزل فيه ذلك. كأن أهل المدينة تلي عليهم ما سبق إنزاله في مكة. وقيل لهم: أنزل الله حظر ما أنتم عليه والوعيد فيه. فأقلعوا. وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملكة فيه. ومنه يعلم أن قول بعضهم: نزلت بمكة إلا قصة التطفيف. وقول آخر: إن كل نوع من المكّي والمدنيّ منه آيات مستثناة - منشؤه الحيرة في المطابقة بين ظاهر ما يتبادر من المأثور في سبب النزول، وبين ما يدل عليه السياق من خلافه. وبالوقوف على عرف السلف يزول الإشكال ويتضح الحال»⁽¹⁾. اهـ

(1) محاسن التأويل (9/ 427) / القاسمي: ويُنظر: البرهان في علوم القرآن (1/ 31) / الزركشي: وما يَدُكُّرُهُ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِنُزُولِ الْآيَةِ قد يكون من هذا الباب لاسيما وَقَدْ عُرِفَ مِنْ عَادَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا فَإِنَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَنْصَبُّ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ لَا أَنَّ هَذَا كَانَ السَّبَبَ فِي نَزُولِهَا وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ يَجْعَلُونَ هَذَا مِنَ الْمَرْفُوعِ الْمُسْتَدَكِّ كَمَا فِي قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {نَسَاؤُكُمْ حَرِثَ لَكُمْ} . وَأَمَّا الْإِمَامُ أَحْمَدُ فَلَمْ يُدْخِلْهُ فِي الْمُسْنَدِ وَكَذَلِكَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ وَجَعَلُوا هَذَا مِمَّا يُقَالُ بِالِاسْتِدْلَالِ وَبِالتَّأْوِيلِ فَهُوَ مِنْ جَنْسِ الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى الْحُكْمِ بِالْآيَةِ لَا مِنْ جَنْسِ التُّقْلِ لِمَا وَقَعَ". (1/ 32).

ذلك، وإن أمثلة هذه الآثار لكثيرة لو ضُبِطَتْ على هذا النمط من التتبع والتحرير مع التنبيه على لطائف الاعتبار القرآني لوقفنا على علم شامخ من فقه التدبر لدى علماء السلف الصالح ولبنينا تعاملنا على قياس ما رسموه لتحقيق العودة إلى القرآن قراءةً وهدياً. وإنه لمن المناسب أن نستنتج ونصرّح بكون قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ترجع إلى عرف الصحابة في الاستدلال على تأويل الآية بسبب النزول غير الصريح.

قال ابن تيمية: «... والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلة، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلة أيضاً...»⁽¹⁾.

وأما النموذج الثالث فتأويل ابن عباس لسورة النصر، وحمله إياها على استنباط معنى لا يُقرأ في سياق ظهر الآية المؤولة، مع موافقة عمر رضي الله عنه له على ذلك، وهذا من العزائم ومحاسن التوفيق، فقد وكّد له بقوله ما أعلم منها إلا ما تقول، فبطن الآية شيء وظاهرها شيء آخر. ومستند ذلك الأصل من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس بالفقه في الدين والعلم بالتأويل، فوفق كثير من نظائر هذا النمط، وأما صحة تأويله فشاهدها مناسبة ترتيب السورة في أواخر نزول القرآن، أي كانت من آخر ما نزل ففطن لذلك وعبر عنه بقوله هو أجل رسول الله أعلمه إيّاه، وكذلك يحمل تأويل عمر رضي الله عنه لآية: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: 3] فإنه قال: «ما بعد الكمال إلا النقصان» مستشعراً نعيه -عليه الصلاة والسلام- فما عاش بعدها إلا واحداً وثمانين

(1) مقدمة في أصول التفسير؛ ابن تيمية: (ص: 16).

يوماً⁽¹⁾. فشأن هذه التأويلات المرضية طول التعامل مع القرآن تدبراً واعتباراً بآيه ومقاصد خطابه، وتفهماً لأسلوبه وسياقاته.

وأما النموذج الرابع وهو تأويل الجلود بالفروج، فتفسير للفظ العام بأحد أفراده تمثيلاً لما عسى أن يكون من باب التغليظ في أحكام الجوارح، فلا يلتفت إلى الاختلاف الظاهر من المرويّات والآثار لجريانها على عرف في التعبير أطلق عليه باختلاف التنوع تفرقة بينه وبين أخرى للاف التضاد والتعارض⁽²⁾. فتارة يفسر اللفظ بمثاله وأخرى بلازمه وتقديره ومرة بأفراد عموميه وأخرى بمجازه ومقاصد كلامه، وقد يعترض على هذا المنحى فيستغرب⁽³⁾ أو يحكم عليه بالمجازفة، لعدم الاعتداد بالاعتصار على الفروج لأنها آحاد الجلد، ولم يزعم القائلون بالفروج حصراً أو تحديداً وإنما أوّلوه على مقتضى الأهم من مراتب الجلود فإنها تصدق على آحادها وأفرادها، كما تصدق على الكل شمولاً ولا يرد السياق أحدها، فإذا علمنا اهتمام السلف بمرتبة اللفظ فلا جرم أن يعتدوا بما هو أولى من التنبيه عليه، ومن هذا القبيل تفسير ابن عباس وغيره كالسدي⁽⁴⁾ للفظ الجلود في الآية بالفروج، وهذا ينبئ بشدة وقوة ملازمهم للقراءة بتدبر وتتبع لمقاصد الخطاب واستجلاء للمعاني الباطنة التي تهذب النفوس. قال القاسمي: ﴿أقول: مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى؛ وذلك لأن الجلود تصدق على ما حواه الجسم من الأعضاء والعضلات التي تكتسب الجريمة. ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولاها بالإرادة هو الفروج. لأن معصيتها تربي على الجميع. وقد عهد في مفسري السلف اقتصارهم في التأويل من العام على فرد الأهم. كقصرهم (سبيل الله) على

(1) يُنظر: الموافقات (4/ 211) / الشاطبي: وأما أثر عمر- رضي الله عنه - عند الطبري: جامع البيان (9/ 519) فلفظه "أبكاني أتاكنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص". والله أعلم.

(2) يُنظر: مقدمة في أصول التفسير؛ ابن تيمية: ص 11.

(3) ينظر: تفسير التحرير والتنوير؛ ابن عاشور: 24/ 267.

(4) يُنظر: معالم التنزيل؛ البغوي: (4/ 130).

الجهاد، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل ما فيه خير وقربة ونفع ومعونة على الطاعة، إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق. فذكر الجهاد لا ينفي غيره. وهذه فائدة ينبغي أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير. فإنها من فوائده الجليلة. وينحل بها إشكالات⁽¹⁾، بل استفدنا من تقرير القاسمي مثلاً آخر قد تقدّم في قوله «مع أن (سبيل الله) يصدق على كل ما فيه خير وقربة ونفع ومعونة على الطاعة، إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق فذكر الجهاد لا ينفي غيره»، فإنا نجد تحرّي كلام السلف من الصحابة والتابعين لحمله على مرادهم في قراءة وتأويل القرآن إلى معانيه الاعتبارية والمقاصدية.

وأما النموذج الأخير، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه: «اقرأوا إن شئتم.....»، فإنه استدلل على دقة الاستنباط بالقراءة القرآنية، فلم يتوقف عند حدّ القراءة والأداء دون التفكير والعوص فيما يستفاد من باطنها، والتّمثيل بالقراءة القرآنية أو سياق القرآن أدب نبوي مشهور فإن النبي صلى الله عليه وسلم ورد عنه ما يفيد التنبية على المعنى القرآني بالقرآن نفسه أي بقراءته هو على الصّحب الكرام رضي الله عنهم، وذلك أن هذه الصيغة الاعتبارية أصل أصيل في التدبر، وهي قوله «اقرأوا إن شئتم»، وقد تتبعت ورودها عند المفسرين فوقفت على طائفة منها وافرة ولا بأس بها، وأحصيتها عند الطبري وابن أبي حاتم في موسوعتيهما التفسيرية، فالفيتها أربعة وعشرين موضعاً بالمكرر⁽²⁾، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتّمرتان، ولا اللّقة واللّقتان ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً اقرأوا إن شئتم»⁽³⁾ [البقرة: 273]. بل وأحسب أنه من تفرّعات هذا الأصل الاعتباري في تفسير القراءة القرآنية، ما ورد عن المفسرين

(1) محاسن التأويل؛ القاسمي: (8/ 333).

(2) يُنظر أمثلتها: في جامع البيان؛ الطبري: (6/ 339)، (14/ 309)، (14/ 560)، (17/ 403)، (20/ 185).

(3) الجامع الصحيح؛ البخاري: كتاب التفسير رقم 4935 من حديث أبي هريرة مرفوعاً (6/ 32).

وينظر: جامع البيان؛ الطبري: (14/ 309).

تَقُولَاتِهِمْ فِي مُصْتَفَاتِهِمْ: «وَقَرَأَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، وَفُلَانٌ كَانَ يَقْرَأُ كَذَا»، فَتَقَبَّلَهُ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُ قِرَاءَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ⁽¹⁾ لِلخَطَابِ الْقُرْآنِيِّ أَوْ لِلكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، تَحْصِيلاً لِّلْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ الْأَصِيلِ فِي مَعْهَدِ لِسَانِ الْعَرَبِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ الشَّاذَّةَ-إِذَا صَحَّ سَنَدُهَا⁽²⁾- الْمُفَسِّرُ بِهَا النَّصُّ الْمُحْكَمُ كَانَتْ قِرَاءَةً مُحْكَمَةً قَبْلَ نَسْخِهَا بِالْعَرْضَةِ الْآخِرَةِ الْمُوثَّقَةِ بَيْنَ الدَّفَتَيْنِ بِصَنِيعِ الصَّحَابَةِ فِي الْجَمْعِ الْآخِرِ، إِذْ مَا كَانَ لَهُمْ لِيُجْمِعُوا عَلَى تَرْكِ مَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ⁽³⁾، فَطُرِحَ الشَّاذُّ وَبَقِيَ الْمُحْكَمُ غَيْرُ الْمَنْسُوخِ مِنَ الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْإِعْتِدَادَ بِالْقِرَاءَةِ الشَّاذَّةِ-إِذَا صَحَّ سَنَدُهَا- فِي التَّفْسِيرِ هُوَ مِنَ الْمَعْهُودِ قِرَاءَانًا فِي الْعَهْدِ الْأَوَّلِ إِتِّخَذَ مَسْلَكًا فِي تَفْسِيرِ النَّصِّ بِهِ حَمَلًا عَلَى النَّظَائِرِ، كَالَّذِي تَقَدَّمَ فِيمَا حَكَيْنَاهُ عَنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ مَنْ تَقْيِيمِهِ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ بِالتَّوْجِيهِ إِلَى النَّظَائِرِ مِنَ الْقُرْآنِ⁽⁴⁾، وَلَوْ أَمَعْنَا نَظْرًا جَيِّدًا وَتَحْرِيرًا بِالْعَا فِي قَاعَةِ النَّظَائِرِ لَخَرَجْنَا عَلَيْهَا جَمَلًا مِنَ الْقَوَاعِدِ الْجَزْئِيَّةِ الْكَفِيلَةِ بِتَأْصِيلِ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ لِلْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ الْمُعْجَزِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الخاتمة :

وهذه أهم نتائج البحث والدراسة ، قد اشتملت على الآتي:

(1) يُنْظَرُ: مُحَاسِنُ التَّأْوِيلِ؛ الْقَاسِمِيُّ: مَرْجِعُ سَابِقٍ (29/1). وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: ((فَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْإِسْتِنَادِ وَالرَّوَايَاتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْخَاصَّةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ دُونَ عَوَامِ النَّاسِ، فَإِنَّمَا أَرَادَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْهَا أَنْ يَسْتَشْهَدُوا بِهَا عَلَى تَأْوِيلِ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ، وَتَكُونَ دَلَالَةً عَلَى مَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ وَعِلْمِ وَجْهِهِ، وَذَلِكَ كَقِرَاءَةِ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ) وَكَقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَالسَّارِقُونَ وَالسَّارِقَاتُ فَاظْمَعُوا أَيْمَانَهُمْ)..... فَهَذِهِ الْحُرُوفُ وَأَشْبَاهُهَا كَثِيرَةٌ قَدْ صَارَتْ مُفَسَّرَةً لِلْقُرْآنِ، وَقَدْ كَانَ يُرَى مِثْلُ هَذَا عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ فِي التَّفْسِيرِ فَيُسْتَحْسَنُ ذَلِكَ، فَكَيْفَ إِذَا رُويَ عَنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَارَ فِي نَفْسِ الْقِرَاءَةِ؟ فَهُوَ الْآنَ أَكْثَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَأَقْوَى.. الخ)). فَضَائِلُ الْقُرْآنِ، أَبُو عُبَيْدٍ: بَابُ مَا رُفِعَ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ نَزُولِهِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْمَصَاحِفِ: ص 320.

(2) جَمَالُ الْقِرَاءِ: السَّخَاوِيُّ: (568/2).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ: (574/2) .

(4) يُنْظَرُ التَّمْهِيدُ مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ عِنْدَ عُنْوَانِ: الْمَفْهُومُ الْكَلْبِيُّ التَّرْكِيبِيُّ: وَيَتَنَاوَلُ عِلَاقَةَ الْأَدَاءِ بِالْإِعْتِبَارِ الْقُرْآنِيِّ وَتَحْرِيرَ إِشْكَالِيَّةِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا.

- الاعتبارُ القرآنيُّ: انعاطُ القارئِ بأداء القرآن تجويداً وتفهماً.
 - مفاتيح الاعتبار القرآنيّ أصولٌ عرفها السلف الصالح فأثمرت تفاسير ذات أبعادٍ هدايةً.
 - إطلاقاتُ السلف في التفسير عرفٌ منهجيٌّ ينبغي درسه وفحصه للوقوف على القراءة الوظيفية للقرآن الكريم.
 - الحاجة ماسةٌ إلى تكوين نُخبةٍ من المتصدّرين للإقراء يلزمون الأداء النبويّ في التلقي والتلقين.
 - اقتراح دوراتٍ توجيهيةٍ تكوينيةٍ للأداء الصوتي والدرس التفسيريّ.
- هذا ما تيسّر لي جمعه، والحمد لله على توفيقه وهو حسبي ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إعراب القرآن: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس. تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم؛ دار الكتب العلمية، بيروت. ط1، 1421 هـ.
2. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض الزَّيْدِي. تحقيق: مجموعة من المحققين. دار الهداية. د. تا.
3. تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي؛ تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين - بيروت. ط4، 1407 هـ - 1987 م.
4. التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني؛ تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. ط1؛ 1403 هـ - 1983 م.
5. جامع البيان في تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة، ط1؛ 1420 هـ - 2000 م.
6. الجامع الكبير: محمد بن عيسى بن سورة. تحقيق: بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي - بيروت. 1998 م
7. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ دار طوق النجاة (بتقديم محمد فؤاد عبد الباقي). ط1؛ 1422 هـ.
8. جمال القراء: علي بن أحمد السخاوي، تحقيق: عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي؛ مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت. ط1، 1419 هـ - 1999 م.
9. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي؛ تحقيق: علي عبد الباري عطية؛ دار الكتب العلمية - بيروت. ط1؛ 1415 هـ.
10. سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. ط3 - 1985 م.
11. شرح التلويع التوضيح: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، (طبعة خاصة بالمكتبة الشاملة).
- ط1 - 1997 م
12. العودة إلى القرآن: الدكتور مجدي الهلالي، (طبعة المكتبة الشاملة).

13. العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي . د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي . دار ومكتبة الهلال. د تا.
14. فتح الباري شرح صحيح البخاري: احمد بن حجر العسقلاني. تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار المعرفة - بيروت، 1379.
15. فضائل القرآن : أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي. تحقيق: يوسف عثمان فضل الله جبريل. مكتبة الرشد، الرياض. ط 1 - 1989 م.
16. فضائل القرآن: أبو عبيد القاسم بن سلام . تحقيق: مروان العطية ومُحسِن خَراة ووفاء تقي الدِّين - داؤ ابن كثير، دمشق-بيروت-ط2، 1999م.
17. كشاف اصطلاحات الفنون: محمد بن علي التهانوي. تحقيق: د. علي دحروج. مكتبة لبنان ناشرون بيروت. ط1 - 1996م.
18. الكليات : أبو البقاء الكفوي. أيوب بن موسى أبو البقاء الحنفي تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري. مؤسسة الرسالة - بيروت. د تا.
19. لسان العرب: أبو الفضل محمد بن مكرم ، جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي. دار صادر - بيروت. ط 3، 1414 هـ.
20. محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، ط1، 1418 هـ.
21. مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات: إبراهيم بن سعيد بن حمد الدوسري؛ دار الحضارة للنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية . ط 1 - 2008 م
22. المسند أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره- مؤسسة الرسالة- ط1، 2001م.
23. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل الضابط: مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي - بيروت. دتا.
24. المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع: (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) أبو حاتم ابن حبان الرازي، شعيب الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة، بيروت. ط 1 - 1988 م
25. معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي . دار إحياء التراث العربي -بيروت. ط1 - 1420 هـ.
26. معجم علوم القرآن إبراهيم محمد الجرمي، دار القلم ، دمشق ؛ ط1؛ 1422 هـ - 2001م.

27. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي: تحقيق: أ. د محمد إبراهيم عبادة . مكتبة الآداب - القاهرة / مصر . ط1 - 2004 م
28. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . دار الفكر. 1979م.
29. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية). دار الكتب العلمية - بيروت. دتا.
30. المكتفى في الوقف والإبتداء، أبو عمرو عيسى بن عثمان الداني. تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان. دار عمار ط1 - 2001 م
31. الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي. تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان. دار ابن عفان.



